مجلة بحوث جامعة تعز Taiz University Research Journal
العدد (44) Issue (44)
TURJ
ISSN: 7848-2958 Vol. 44.pp 26- 47
يونيو ٢٠٢٥م june 2025م

الانسجام في البنية الكلية للنص العقدي
في ضوء نحو النص

الباحث: مطهر حزام محمد الزبيري
ماجستير في علم اللغة جامعة تعز

الملخص

يحاول هذا البحث تقديم سردية موجزة عن موضوع البنية الكلية للنص العقدي في ضوء نحو النص الذي ينطلق أساسًا من رؤية تحليلية كلية ومتكاملة للنص، تستهدف أبنيته بوصفها الوحدة اللغوية الكبرى، ومن هذا المنطلق يُعد النص العقدي كتلة معمارية واحدة متماسكة في إطار بنيتين: بنية سطحية ذات نسيج لفظي يربطها بآلية الاتساق، وبنية عميقة ذات تعالقات خفية منطقية تسمى بالانسجام. ولئن كانت منظومة الربط لبنية السطح موجودة في الواقع، فإن شبكة الانسجام يقوم المتلقي عن طريق التأويل والتفسير باستنباطها وافتراض وجودها في عالم النص. وتعد البنية الكلية جزءًا من مخطط البنية العميقة، يمثّل البؤرة الدلالية المحورية التي تتشكل حولها أحداث النص ومعارفه، ويعد موضوع الدعوة إلى وحدانية الله تعالى هو البنية الكلية المسيطرة على مفاهيم البنية الفكرية للنص العقدي. وهذا الحضور المتجلي والمهيمن على امتداد آيات العقيدة هو ما أكسب هذه البنية الأهمية وجعلها على رأس الهرم النصي؛ ذلك أن هذه النقطة الموضوعية في البناء الرأسي للنص كان العامل الحاسم في تأطير المنظومة المفهومية حولها؛ ومن ثم يُشكّل هذا التحديد الخيط الأول الذي يحبكه المتلقي في نسيج الانسجام النصي للبنية المجردة المعقدة. ويستند المتلقي إلى بعض الإجراءات في استكشافه للبنية الكلية، من أهمها أسماء السور، والجمل المفتاحية، والعبارات المكررة.

الكلمات المفتاحية: انسجام، بنية كلية، نص عقدي، نحو النص.

Abstract:

This study aims to provide a concise narrative on the overall structure of the contractual text within a textual grammar, which is based on an analytical and integrated vision of the text, considering its structures as the largest linguistic unit. From this perspective, the contractual text is regarded as a single cohesive architectural entity, structured within two levels: a surface structure, with a phonetic texture linked by a coherence mechanisms, and a deep structure, with hidden logical relationships called harmony. While the binding system of the surface structure is explicitly present in reality, the cohesion network is inferred and assumed by the reader through interpretation and analysis within the textual world. The overall structure is part of the deep structural scheme, representing the central semantic focal point around which the events and knowledge of the text revolve. The theme of calling to the oneness of Allah is the dominant overall structure governing the conceptual framework of the contractual text. This prominent and pervasive presence throughout the verses of creed grants this structure its significance, placing it at the top of the textual hierarchy. For this objective point in the vertical structure of the text was the decisive factor in framing the conceptual system around it. Consequently, this determination forms the initial thread that the reader weaves into the textual cohesion of the abstract and complex structure. The reader relies on certain procedures to uncover the overall structure, including the names of the surahs, key sentences, and repeated phrases.

.**Keywords**: Text Grammar, Text, Structure, Overall Structure, harmony

المقدمة

يمثّل هذا المشروع محاولة في البحث في موضوع الانسجام في البنية الكلية في النص العقدي في ضوء الرؤية اللسانية التي تجعل من الوصف للأبنية النصية هدفًا لها، وتنطلق من قاعدة مفادها أن النص كتلة واحدة في إطار نسيج ومنوال متماسك، تعمل عليه جملة من الآليات اللغوية وغير اللغوية في مستوى: البنية السطحية، والبنية العميقة.

ويُعدُّ الانسجام التلاحم أو التماسك للبنية الدلالية العميقة للنص العقدي، ذلك أنه لا يمكن لأي نص أن تتحقق وحدته إلا باعتماد الانسجام الذي يعد معيارًا لقياس نصية النص التي يتماسك على ضوئها النص من الناحية الدلالية في إطار وحدته الكلية؛ من هذا المنطلق أكَّد (هاليداي ورقية) أهمية البعد الدلالي بقولهما: "إن النص في إطار أفضل نظرة، هو وحدة دلالية، ليس وحدة الشكل بل وحدة المعنى"[(1)].

وموضوع البنية الكلية من أهم القضايا التي تناولتها لسانيات ما بعد الجملة وتحليل النص بمزيد من الاهتمام؛ لأنها تمثل المرتكز الأساس في تحقيق الانسجام الكلي على المستوى الدلالي، ويبرز ذلك جليًا في رد فعل المتلقي وعدم قبوله لنص ما يخلو من بنية كلية موحدة لشتاته وجامعة لمقاطعه.

ولعل هذا الأمر هو محرك الرؤية اللسانية النصية والدافع الأساس؛ لكي تبحث عن آلية فهم النص وتأويله، وكيفية اختزان المعلومات النصية في الذاكرة وطريقة ربط المتلقي بين قضايا النص والإدراك الاجتماعي. وكان للإدراك الكلي للعقلية اللسانية أن ينتج تصميم البنية النصية المعرفية وفق مخطط البنيات الثلاث: الكلية، والكبرى، والصغرى. لتقريب الرؤية المفهومية، واختزال أهم النقاط المعرفية عن المحتوى النصي ضمن ما يسمى بالبنية الكلية والبنيات الكبرى.

ولم يكن من السهل تصور البنية الكلية لنص ما إلا عن طريق مسح كامل أو استقراء لحيثيات النموذج النصي المستهدف بناء على آليات تساعد على الاستكشاف والرصد للخيط الدلالي الذي يرمز إلى فكرة واحدة تتجمع حولها أحداث النسيج النصي ومعلوماته. فكون البنية الكلية هي التيمة الأساسية أو النقطة الأم التي تمثل صلب الموضوع يستلزم ذلك اعتماد آليات تؤشر على هذه المحورية، ومن أهمها: عنوان النص، الجملة المفتاحية، العبارات المتكررة، الجملة الخاتمة.

ولقد شدَّنا إلى مجال تحليل النص ما يتميز به هذا المنهج من البحث، على الرغم من صعوبته؛ لانفتاحه على علوم إنسانية عديدة ومقاربات لسانية مختلفة. وقد حفَّزنا كذلك شعورنا بما يميز تحليل النص من إمتاع يخرج بنا عما تتهم به اللسانيات الأخرى عادة من جفاف وتجريد.

وكان لنا أن نختار النص العقدي مادة للتحليل النصي والتطبيق على أساس ما يميز هذا الحقل النصي من مكانة متقدمة في المدونة الدينية والقرآنية؛ ذلك أنه يمثل مرتكز التصور للمنظومة النصية التي تعالج التوجيهات العملية والتشريعية في واقع الالتزام الديني.

وقد اقتصرنا في مشروعنا التطبيقي على عينة مختارة تشكّل جوهر النص العقدي، تتمثل في آيات الأصول الإيمانية الستة نموذجًا.

وبخصوص الدراسات السابقة، لم يعثر الباحث على دراسة مستقلة للبنية الكلية للنص العقدي أو حتى القرآني، إنما وجد لها دراسات خاطفة في إطار البنية القرآنية، لعل أهمها: الانسجام في النص القرآني – دراسة في الأدوات والمستويات– (أطروحة دكتوراه للطالب: عزوز ختيم، جامعة باتنة –1– الجزائر، 2017– 2018م).

وبإمكاننا أن نلخص إشكالية البحث في جملة من التساؤلات، على النحو الآتي:

ماذا يعني الانسجام في البنية الكلية في اللسانيات النصية؟

ما مشروعية الحديث عن الانسجام في البنية الكلية في النص العقدي القرآني؟

ما هي الآليات أو الاعتبارات التي تدعم البنية الكلية وتؤشر عليها؟

وقد انتظم البحث في تمهيد وثلاثة مباحث، إضافة إلى المقدمة والخاتمة، على النحو الآتي:

التمهيد: الانسجام في البنية الكلية في اللسانيات النصية. تناول مفهوم الانسجام والبنية الكلية في اللسانيات النصية

المبحث الأول: الانسجام في البنية الكلية في النص العقدي القرآني. تناول الانسجام في البنية الكلية في النص العقدي القرآني.

المبحث الثاني: البنية الكلية وعلاقتها بأسماء السور. تناول البنية الكلية وعلاقتها بأسماء السور.

المبحث الثالث: البنية الكلية وعلاقتها بالآية الأولى (الجملة النواة). تناول البنية الكلية وعلاقتها بالآية الأولى.

المبحث الرابع: البنية الكلية وعلاقتها بخاتمة النص. تناول البنية الكلية وعلاقتها بالآية الأولى.

التمهيد: الانسجام في البنية الكلية في اللسانيات النصية

1- الانسجام (Coherence)[2]

أ- الدلالة المعجمية:

وردت مادة (س. ج. م) في لسان العرب بمعانٍ شتَّى: "سجمت العين الدمع، والسحابة الماء تسجمه سجمًا وسجومًا وسجمانًا: وهو قطران الدمع وسيلانه... وانسجم الماء والدمع، فهو منسجم، إذا انسجم أي: انصب، وسجمت السحابة مطرها تسجيمًا وتسجامًا إذا صبته... وسجم العين والدمع الماء يسجم سجومًا وسجامًا إذا سال وانسجم، وأسجمت السحابة دام مطرها"[3].

والنظر في هذه الدلالات يكشف أنها تدور حول الانصباب والصب والسيلان ودوام المطر، مما يقودنا إلى نتيجة مؤداها، أنَّ هذه المعاني اللغوية على صلة بمعنى الانسجام النصي، إذ إن انصباب الماء ودوام المطر يؤدي إلى تجمعه كما تؤدي علاقات الانسجام إلى تماسك النص ووحدته الدلالية.

ب- الدلالة الاصطلاحية:

الانسجام إجراء يعمل على تنظيم البنية النصية العميقة وربطها بمنظومة من التعالقات على مستوى المعنى والمقام. ويُعد الانسجام عند (دي بوجراند) و(دريسلر) معيارًا يختص بالاستمرارية المتحققة في عالم النص، والمقصود منها الاستمرارية الدلالية التي تتجلى في منظومة المفاهيم والعلاقات الرابطة بين هذه المفاهيم[4]. وعالم النص عند (دي بوجراند) هو "الموازي الإدراكي في ذهن مستعمل اللغة لهيئة المفاهيم المنشطة فيما يتعلق بالنص"[5]، أي: إن الانسجام لديه هو استمرار على مستوى المعنى للمفاهيم الموجودة في ذهن مستعمل اللغة داخل نص معين.

والانسجام من منظور (فان ديك) نوعان: انسجام أدنى يخص مستوى البنى الصغرى من النص، وانسجام أكبر أو أعلى، مداره البنية الكبرى، ويرتبط هذا الأخير بمفهوم موضوع النص أو الغرض[6].

يمكن القول: إن الانسجام ترابط منطقي بين موضوعات النص، يجعل منه وحدة دلالية، ويشتمل أيضًا على سيرورة واستمرارية وتطور واتجاه صوب مقصد محدد يضمن له السلاسة والتدرج، وينفي عنه الانتقال غير المسوغ، ووجود مثل هذه التعالقات الدلالية داخل النص يُيسر فهمه فهمًا منطقيًا[7].

وتتمثل هذه التعالقات في: التفسير، والتعليل، والتوكيد، والتعليق الشرطي، والتعاقب، والمعية، والتتابع الزمني، والجمع بين الأشياء، والاستدراك، والإضراب، والعموم، والخصوص، والمناسبة، والتخطيط على مستوى البنى الصغرى والبنية الكبرى والبنية الكلية أو موضوع النص.

وهذه التعالقات يكون لها وجود في نفس المبدع، ويحاول نقل هذا الوجود إلى المتلقي، والمتلقي يشارك المبدع في تكوين شبكة العلاقات هذه بصورة أخرى تنطبق مع خبراته المرتبطة بموضوع النص[8].

وعلى الرغم من أن للمتلقي دوره الفاعل في الحكم على انسجام النص من عدمه، فإن هذا طبعًا في غير القرآن الكريم.

2- البنية الكلية في اللسانيات النصية:

البنية الكلية هي موضوع النص أو الفكرة المحورية الأم التي يتأسس عليها نص ما، ويعرّف (هاينه من) وزميله موضوع النص بأنه: "الفكرة الأساسية أو الرئيسية في نص ما التي تضم المعلومات الجوهرية المحددة لمضمون النص بأكمله، ولبنيته بشكل مركز ومجرد"[9].

وهذا القول يعني أن محتوى النص يختزل عناصر إخبارية مهمة، فحين يؤسس المرسل خطابًا أو ينتج نصًا فإنه يستهدف توصيل فكرة رئيسية (البنية الكلية) للمتلقي أو القارئ، يستنبطها عبر ربط مكونات النص وأفكاره الفرعية بعضها ببعض حتى يصل إليها، إذ تتعالق الأحداث بعضها ببعض، فتشكّل وحدة موضوعية للنص. وبدون اكتشاف الفكرة الأم فإن المتلقي لا يدرك انسجام النص. فللمتلقي دور مهم في تحديد موضوع النص، "فهو الذي يحدد إطاره؛ لأن مفهوم التماسك ينتمي إلى مجال الفهم والتفسير الذي يضفيه القارئ على النص. ونتيجة لأن تأويل النص من جانب القارئ لا يعتمد على استرجاع البيانات الدلالية التي يتضمنها هذا النص بل يقتضي أيضا إدخال عناصر القراءة التي يملكها المتلقي، داخل ما يسمى بكفاءة النص أو إنجازه..."[10].

ويعني موضوع النص عند (برينكر): "الصياغة الملخصة إلى أبعد حد لمضمونه"[11]. وهذا القول يصرّح أن موضوع النص أو الفكرة الرئيسة يعني تحديد النقطة المهمة التي توحد النص، وتكّون فكرته العامة، أو هو البؤرة التي يدور حولها النص[12].

ويعد موضوع النص البنية الكبرى في رأي الدكتور صلاح فضل بقوله: "التحليل النصي يبدأ من البنية الكبرى المتحققة بالفعل. وهي تتسم بدرجة كبرى من الانسجام والتماسك"[13].

ويرى خطابي أن المقصود بموضوع النص في القرآن هو بنية دلالية تصب فيها مجموعة من الآيات بتضافر مستمر عبر متواليات قد تطول، أو تقصر حسب ما يتطلبه الخطاب من إيجاز، أو إطناب، أو شرح، أو تمطيط [14].

ويُفهم من كلام فضل وخطابي أنهما لا يفرقان بين البنيتين: الكلية والكبرى، بل يعدانها شيئًا واحدًا، وهذا الإجراء يقارب رؤية الفكر التفسيري للقرآن الكريم الذي اقتضت نظرته البعيدة والشاملة للنص القرآني أن يلتزم منهجية تأويلية مؤسسة على اعتماد القرآن نصًا واحدًا تحكمه مقصدية نصية، تلخص مضامينه الدلالية؛ ليسّهل هذا المنهج

الرؤية المعرفية لمفاهيم النص القرآني؛ فيستقيم على ضوئها السلوك على الصراط المستقيم. فعلماء التفسير يعبّرون عن موضوع النص أو البنية الكلية بأغراض السورة أو مقاصد السورة وغيرهما[15].

وإذا كان المقصد من تحديد معمارية بنائية للنص هو التنظيم لتختزل العناصر المعرفية المهمة في البنية الذهنية، فإن الباحث جنح إلى الرؤية التي تؤطر البناء النصي إلى بنى: كلية، وكبرى؛ حتى يكون ذلك أكثر فاعلية في عملية الاختزال المعرفي وتقريب المفاهيم الأكثر أهمية التي ينطوي عليها النص؛ لأن البنية الكلية – حين تؤطر منفردة عن البنية الكبرى – لا شك أننا نعبّر عنها بعنصر أو عنصرين أو ثلاثة عناصر في الغالب، أما البنية الكبرى فتتعدد مفاهيمها غالبًا. من هنا يُعد اعتماد البنية الكلية منفصلة عن الكبرى؛ لتدلَّ على العنصر الأكثر أهمية في النص واستبقاء العناصر المهمة بعد ذلك لتؤطر ضمن مفهوم البنية الكبرى. وبذلك تكون هذه العملية المنهجية أقرب إلى فهم القارئ.

بناءً على ما سبق، تشكّل البنية الكلية المفتاح الرئيس في فك شفرة النص دلاليًا والتحكم بمقتضاه، بل إعادة بنائه وإدراك تعالقه وانسجامه؛ فعلى مستوى الوظيفة تقوم هذه البنية بتنظيم الإخبار الدلالي المعقَّد في المعالجة وفي الذاكرة[16]. فالمتتاليات النصية ليس بمقدورها تحقيق وحدة النص، وإنما يتحقق ذلك عبر هذا الإجراء المنهجي المجرد المتمثّل بالبنية الكلية التي تنظم النص، وتجعل منه كتلة موحدة منسجمة ومتماسكة، والطريق الذي يسلكه المتلقي إلى معرفة هذه البنية يمر من تتبع المهيمنات الدلالية المسيطرة على النص، وعبر السياق المصاحب الذي يتركَّز عليه دور أساسي في إرشاد المتلقي للوصول إلى هذه البنية، كما تشكّل الخلفية الثقافية للمتلقي رافدًا معرفيًا في تفكيك البنية النصية وإعادة هندستها أو ترتيبها ضمن مستويات.

المبحث الأول: الانسجام في البنية الكلية في النص العقدي القرآني

استهداف النص القرآني العقدي دلاليًا لاستجلاء انسجامه وتماسكه يقتضي –بالضرورة– تحديد موضوع النص، وشرح كيفية بنائه، أي: ترتيب وتنظيم عالم النص، وهذا يقتضي النظر إلى آيات العقيدة، بوصفها نصًا كليًا متكاملًا؛ لاستكناه الوحدة الموضوعية التي ينطوي عليها، وتنظم أحداثه في خيط دلالي واحد يبعث على انسجام النص. أي إننا ببساطة نبحث عن وحدة النص العقدي.

ومن المعلوم في مرجعيتنا الثقافية أن النص العقدي القرآني يدور حول ستة أصول إيمانية، هي: الإيمان بالله، والملائكة، والكتاب، والرسالة، والمعاد، والقدر. قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[البقرة:285]. وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ . . . ﴾[البقرة:177].

وإذا تتبعنا المهيمنات الدلالية المسيطرة على آيات العقيدة في القرآن الكريم، واصطحبنا السياق، واستندنا إلى الخلفية الثقافية سنجد أن التوحيد هو لب الإيمان بالله تعالى وجوهر العقيدة، وهو: الإيمان بإله واحد فوق هذا الكون، له الخلق والأمر، هو رب كل شيء، ومدبر كل أمر، هو وحده المستحق لأن يُعبد ولا يُجحد، وأن يُشكر ولا يُكفر، يقول سبحانه تعالى في محكم البيان: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[الأنعام:102]. ومن أجل التنبيه على أهمية عقيدة التوحيد وتفخيمًا لشأنها يقول الله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[آل عمران:18]. فقد شهد الله تعالى لنفسه بالوحدانية، وشهدت الملائكة وأهل العلم له بذلك؛ لأن الاعتقاد بوحدانية الله تعالى، هو الأصل الذي قامت عليه السموات والأرض[17].

وموضوع التوحيد أو حديث القرآن الكريم عن الله تعالى يمزج بين أمرين[18]:

الأول: فقر العالم إلى الله وقيامه به واستمداد الوجود منه، أي: أنه من المستحيل أن يتخلق من غير خالق، أو ينتظم من غير منظّم!

الثاني: أن هذا الخالق المدبر واحد لا شريك له، ليس له ند أو ضد، كل شيء هالك إلا وجهه.

وبناء على ذلك، فقد رسم النص العقدي خط التوحيد على امتداد مدونته القرآنية، وهذا يشي بأهميته وأولويته ضمن موضوعاته وقضاياه، وقد أسهب في الحديث عنه بأن الله أمر به، وأقام دينه عليه، وأنزل به كتابه، وبعث به رسوله، وجعل خيري الدنيا والآخرة في تحقيقه وتجريده، ورصد الجنة مكافأة لأهله وأنصاره، وأعد النار جزاء لخصومه

وأعدائه. ومن ثم يعد التوحيد البنية الكلية التي تمثّل موضوع النص أو الوحدة الموضوعية في نص العقيدة في القرآن الكريم.

وحتى في السور المدنية والتشريعية نجد التوحيد خيطًا دلاليًا حاضرًا بقوة في ثنايا هذه السور وعاملًا بارزًا على تجميع أحداثها تحت مقصده، لأن التشريع منظومة عملية، والعمل فرع عن تصوره، والتوحيد هو التصور الذي ينبني عليه العمل. فعلى سبيل المثال سورة (البقرة)، هي السورة الأولى التي بدأت لتأطير الشريعة، فالخطوة الأولى في ذلك كانت

تقرير وحدة الخالق المعبود، فقد جاءت هذه الخطوة في أشد أوقات الحاجة إليها.. فإن ما مضى من تعظيم أمر الكعبة والمقام والصفاء والمروة كان من شأنه أن يلقي في روع الحديث العهد بالإسلام معنى من معاني الوثنية الأولى في تعظيم الأحجار والمواد، ولا سيما وهذه الأماكن المقدسة كانت يومئذ مباءة للأصنام والأنصاب من حولها ومن فوقها، فوجب ألا يترك هذا التعظيم دون تحديد وتقييد، حتى لا يبقى شك في أن قيام المصلين عند مقام إبراهيم –عليه السلام–، وتوجيه وجوههم نحو الكعبة، وتمسح الطائفين بأركانها، كل أولئك لا يقصد به الإسلام توجيه القلوب إلى هذه الأحجار والآثار

تزلفًا بعبادتها أو طلبًا لشفاعتها، وإنما يقصد تعظيم الإله الحق وامتثال أمره بعبادته في مواطن رحمته، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾[البقرة:163][19].

وباستقراء النص العقدي القرآني سنجد كثيرًا من الأمثلة على موضوع التوحيد، من أهمها سور: (الإخلاص)، (الكافرون)، (الأنعام)، وأوائل سور: (آل عمران)، (الأعراف)، (طه)، (السجدة)، (الحديد)، (الزمر)، وأواخر سور: (يونس)، (الزمر)، (الحشر)، ووسط سورة (يونس)، بل غالب سور القرآن، قال ابن قيم الجوزية: "كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد"[20]. فالقرآن كله في توحيد الله جل وعلا، من أوله إلى آخره؛ لأن الفطرة في أصلها كانت على التوحيد، ثم انحرفت عنه، وجدَّ الخلاف بعد حين: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾[يونس:19]. فالتوحيد هو أساس وحدة الأمة الإنسانية، وما تفرقت إلا حين تسلل الشرك والجحود إلى بنيتها الذهنية، فصارت أممًا، كل أمة اتخذت لنفسها مسارًا عقديًا تقتفيه في حياتها.

من هنا كانت الدعوة إلى توحيد الله أول مهمة ركَّز عليها الرسل– عليهم السلام– لتصحيح البنية الثقافية للناس ورؤيتهم الفكرية للوجود؛ ذلك أنَّ مشكلة الشرك كانت أول انحراف استهدف المنظومة الذهنية للناس، فاستلزم ذلك هذه الأولوية الدعوية للرسل، قال تعالى مشيرًا إلى ذلك في مخكم التنزيل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم

مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾[الأعراف:59]. فوحدانية الله تعالى مثَّلت مفتاح دعوة الرسل– عليهم السلام– ولهذا قال النبي - ﷺ - لرسوله معاذ بن جبل – رضي الله عنه – حين بعثه إلى اليمن: "إنك تأتي قومًا أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه: عبادة الله وحده. فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله. فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة "[21]. وقال النبي - ﷺ -: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله"(22)؛ ولهذا كان الصحيح: أن أول واجب يجب على المكلف: شهادة أن لا إله إلا الله.

من هذا المنطلق، كان تقرير وحدانية الله تعالى هي القضية الكبرى التي ركَّز عليها القرآن تركيزًا كبيرًا، وتآزرت سوره، وتعاضدت آياته إلى حد كبير في معالجتها. وفي هذا الاتجاه يرى الشاطبي أن الكلام القرآني "قسمان: منه ما أنزل في قضية واحدة طالت أم قصرت، وعليه أكثر سور المفصل، ومنه ما أنزل في قضايا متعددة؛ كالبقرة، وآل عمران، والنساء، والعلق، وأشباهها، ولا علينا أنزلت السورة بكمالها دفعة واحدة، أم أنزلت شيئًا بعد شيء"[23]. فمعنى قوله: "أنزل في قضية واحدة"، أي: موضوع النص أو البنية الكلية التي استقرت عليها قسم من سور القرآن الكريم، وهو النص المكي العقدي الذي عالجت سوره وآياته "حقيقة الألوهية، وحقيقة العبودية، وحقيقة العلاقات بينهما، وتعريف الناس بربهم الحق

الذي ينبغي أن يدينوا له ويعبدوه، ويتبعوا أمره وشرعه، وتنحية كل ما دخل على العقيدة الفطرية الصحيحة من غبش ودخل وانحراف والتواء، ورد الناس إلى إلههم الحق الذي يستحق الدينونة لربوبيته"[24].

ومن ذلك بعض السور الطوال كـ(الأنعام) و(يونس)، وبعض من السور المتوسطة كـ(الكهف)، و(المؤمنون)، وكثير من سور المفصل. فمن الطوال على سبيل التمثيل: سورة (الأنعام)، فموضوع النص فيها معالجة قضية العقيدة الأساسية، وهي حقيقة الألوهية والعبودية في السموات والأرض[25]. ومن ذلك سورة (يونس)، فإنَّ: "القضية الأساسية التي يتكئ عليها السياق كله هي قضية الألوهية والعبودية، وتجلية حقيقتهما، وبيان مقتضيات هذه الحقيقة في حياة الناس. أما سائر القضايا الأخرى التي تعرضت لها السورة كقضية الوحي، وقضية الآخرة، وقضية الرسالات السابقة.. فقد جاءت في صدد إيضاح هذه الحقيقة الكبرى وتعميقها وتوسيع مدلولها... والواقع أن تلك القضية الكبرى هي قضية القرآن كله، وقضية القرآن المكي بصفة خاصة"[26].

ومن الأمثلة على متوسط القرآن سورة (الكهف)، فهذه السورة تدور آياتها حول التوحيد ومعالجته عبر لون القصص الذي يغلب عليها وبعض مشاهد القيامة(27). ومن ذلك سورة المؤمنون، "فهي نازلة في قضية واحدة، وإن

اشتملت على معان كثيرة؛ فإنها من المكيات، وغالب المكي أنه مقرر لثلاثة معانٍ: تقرير وحدانية لله، والنبوة والرسالة، والمعاد. لكن أصلها معنى واحد، وهو: توحيد الألوهية (الدعاء إلى عبادة الله)"[28].

ومن نماذج المفصل، سورة (الزمر)، فـ"هي تكاد تكون مقصورة على علاج قضية التوحيد، وهي تطوف بالوجدان في جولات متعاقبة، وتوقع على أوتاره إيقاعات متلاحقة، وتهزه هزًا عميقًا مستمرًا لتطبع فيه حقيقة التوحيد وتمكنها، وتنفي عنه كل شبهة، وكل ظل يشوب هذه الحقيقة"[29].

وليس ذلك فحسب، بل إن البنية الكلية المتمثلة في توحيد الخالق لها دور مهم في انسجام النص العقدي عبر ارتباطها بعناوين السور القرآنية، الأمر الذي ستبينه السطور الآتية.

المبحث الثاني: البنية الكلية وعلاقتها بأسماء السور:

يُعدُّ العنوان من الآليات الفاعلة التي تقوم بعملية إسناد الانسجام النصي وتماسكه إلى حدٍ كبير، إذ إنه "مفتاح الدلالة الكلية وشفراتها العديدة"[30]، الأمر الذي دفع الدراسات اللسانية المعاصرة إلى اعتماد هذا الطرح واعتباره واحدًا من الإجراءات الناجحة في المقاربات النصية، فالعنوان يثير لدى القارئ توقعات قوية حول موضوع النص، فهو "يقدم وظيفة إدراكية هامة تهيئ القارئ أو السامع لبناء التفسير الصحيح للنص أو ما يتحدث عنه النص، ومن ثم فإن عناوين النص جزء من البنية الكبرى"[31]، كما أنه يعبر عن المعلومة الأساسية التي ترتبط بها معلومات أخرى سترد في النص.

وإذا كان موضوع النص يُعرف من العنوان فإن على المتلقي أن يستنبط موضوع النص الضمني من النص ذاته (بالاشتمال على عوامل موقفية)[32].

ولا جرم أن عنوان النص هو نقطة البداية لعملية تحليل نص ما، فالعنوان أول ما تقع عليه عين الباحث النصي، ومن ثم يعكس مدى أهميته في التحليل النصي، فالنص قد يكون متممًا للعنوان أو شارحًا له، أو مفصلا لمجمله، وكذلك اسم السورة؛ إذ يمثّل عنوانها[33]. كما أن العنوان يمدنا برصيد ثمين لتفكيك النص ودراسته... ويقدم لنا معونة كبرى لضبط انسجام النص وفهم ما غمض منه، إذ هو المحور الذي يتولد ويتنامى ويعيد إنتاج نفسه، وهو يحدد هوية النص، فهو بمثابة الرأس للجسد، والأساس الذي تنبني عليه[34].

وقد تنبه الفكر اللساني النصي في موروثنا الثقافي للتعالق بين عنوان السورة وبنيتها الكلية، فثمة مقصدية بينهما كلية أو جزئية، فالزركشي في البرهان يرى بأن تسمية السورة باسمٍ ما "ليس إلا تعضيدا لتقليد معلوم لدى العرب، وهو تقليد يراعي في كثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون في الشيء من خلق أو صفة تخصه... ويسمون

الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها، وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز"[35]. فأسماء الأشياء تعدُّ في الغالب مفتاحًا للوصول إليها، وهي من المفاتيح التي تقَّدم تصورًا عامًا لمحتوى الأشياء ومواضيعها،

والحال نفسه مع سور القرآن الكريم. فالارتباط بين أسماء السور ومضمونها بالضرورة له مدلول خاص، يرمي إلى أن تلك الرموز أو العناوين أمر توقيفي من رسول الله ﷺ.

في حين يرى البقاعي أن اسم السورة مؤشر على مقصودها، يقول: "قد ظهر لي باستعمالي لهذه القاعدة بعد وصولي إلى سورة سبأ في السنة العاشرة من ابتدائي في عمل هذا الكتاب أن اسم كل سورة مترجم عن مقصودها؛ لأن اسم كل شيء يظهر المناسبة بينه وبين مسماه عنوانه الدال إجمالا على تفصيل ما فيه"[36]. ومن الأمثلة على ذلك أن العلاقة بين اسم سورة (فاطر) ومقصودها علاقة إجمال وتفصيل، جاء في نظم الدرر: "ولاسم السورة أتم مناسبة لمقصودها؛ لأنه لا

شيء يعدل ما في الجنة من تجدد الخلق فإنه لا يؤكل منها شيء إلا عاد كما كان في الحال، ولا يراد شيء إلا وجد في أسرع وقت، فهي دار الإبداع والاختراع بالحقيقة وكذا النار، كما في قوله تعالى: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾[النساء:56]. وكذا تسميتها بالملائكة فإنهم يبدعون خلقاً جديداً كل واحد منهم على صورته التي أراد الله المطابقة لقدرته سبحانه وعز شأنه، وهم من الكفرة على وجه لا يحاط به[37]"، فهو يشير إلى أن مقصود السورة هو قدرة الله الكاملة وآثارها في الدنيا والآخرة، وذلك ما يعكسه عنوانها: (فاطر).

وهكذا يتجلَّى لنا إنَّ اسم السورة هو عنوانها الذي يرمز غالبًا إلى موضوعها الكلي، فمثلًا سورة (آل عمران) يرمز عنوانها إلى موضوع الخطاب (البنية الكلية)، ويعبّر عنه المفسرون بالموضوع أو المقصد الأساسي للسورة، قال البقاعي: "ومما يدل على أن القصد بها هو التوحيد تسميتها بـ(آل عمران)، فإن لم يعرب عنه في هذه السورة، ما أعرب عنه ما ساقه سبحانه وتعالى فيها من أخبارهم بما فيها من الأدلة على القدرة التامة الموجبة للتوحيد الذي ليس في درج الإيمان أعلى منه"[38]، وواضح أن تسمية اسم السورة بـ(آل عمران) غدا معادلًا موضوعيًا لها، وأنها تتضمن قيمة إشارية تدل على مضمون الخطاب ووصفه، ذلك أن الموضوع الرئيس الذي تدور حوله السورة المباركة يتمثَّل في تقرير "وحدانية الله تعالى، وأنه وحده هو الحي الذي لا يدركه الفناء"[39].

ومن ذلك ما نجده في بعض السور المكية: سورة (يوسف) ترمز إلى موضوعها الفريد الذي عكفت على معالجته من أولها إلى آخرها، وهي قصة يوسف، فكان اسمها منسجما مع مضمون السورة كاملا، إذ كان دليلا على موضوع السورة الكلي. وكذلك سورة (المؤمنون) اسمها يدل عليها، ويحدد موضوعها. و(القيامة) عنوان لسورة ضمت في تفاصيلها

موضوع قيامة الناس لرب العالمين. وكما في السور القصار التي غالبًا ما تتضمن موضوعًا أحاديًا، كسورة (الفيل) التي يشير اسمها إلى حادثة الفيل التي تطرقت لها السورة، وهي دليل على قدرة الله تعالى التي تقف بالمرصاد لكل من غرته

نفسه النيل من بيته الحرام، وكسورة (القدر) التي يرمز عنوانها إلى الليلة المباركة التي يدور حديث السورة حولها وفضلها. ومثل ذلك: الزلزلة، والقارعة... إلخ.

وقد لا يعبّر اسم السورة على موضوعها الكلي، بل يدل على واحد من موضوعاتها، أو قصة معينة أو حادثة محددة وردت فيها، مثل ذلك عناوين السور: الأنعام، الأعراف، يونس، هود، النحل، الشعراء، السجدة، فاطر، الزمر، غافر، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف... إلخ.

ومن اللافت، أننا نحسب بعض العناوين للسور تشير إلى بعض موضوعات السورة، كما التمسنا ذلك في النماذج السابقة، لكن عند الإمعان في هذه السور ندرك أن هذا العنوان يشير إلى مضمون السورة بصورة كلية، ويبرز الانسجام القوي بين

اسم السورة وما فيها، ومن ذلك سورة (العنكبوت)، فقد عرضت لمصائر طائفة من الأمم التي كذبت رسلها، وانتظمت فيها قصص: موسى، ونوح، وإبراهيم، وشعيب، ولوط، وصالح، وهود. وأوردت عناد أقوامهم وتكذيبهم برسالاتهم، ومن ثم جعلوا من دون الله أولياء فمثلهم، إذن، كمثل الذي اتخذ بيت العنكبوت لتكون ملاذه الذي يحتمي بها، وما هي بمأواه، لذا فقد طالهم عذاب الله في الدنيا، وصاروا في خبر كان، على ما ينتظرهم من جحيم في الآخرة، ففي الدنيا، منهم من أُغرِق، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من أرسل الله عليه حاصبًا، ومنهم من خُسفت به الأرض، فربطت السورة بين هذه القصص جميعًا في تشبيه بليغ، كما في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[العنكبوت:41]. فالانسجام ههنا لم يستقر على اسم السورة ومجرد الإشارة للفظ العنكبوت فيها، بل بين موضوعات السورة فيما بينها، وبين موضوعاتها واسمها.

ومن الظواهر القرآنية الملفتة في النص العقدي أن يعبّر اسم السورة عن موضوعها الكلي دون أن تشير السورة إلى هذا الاسم بصورة صريحة، كما في سورة (الإخلاص)؛ فعنوانها غير مصرح به داخل السورة، لكنه يعبّر عن موضوعها بدقة، ويعد مفتاحًا مهمًا للمتلقي لفك شفرتها، إذ سُميت به لما فيها من التوحيد[40]، ذلك أن موضوعها إخلاص التصور لله تعالى، وتوحيده بالمعرفة، ومن تسمياتها سورة المعرفة؛ لأن معرفة الله تعالى إنما تتم بمعرفة ما فيها[41]. يقول تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَد. اللَّهُ الصَّمَد. لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَد. وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَد﴾[الإخلاص:1-4]. ومن ثم يتجلَّى تعالق تسمية السورة بمحورها الأساسي، فتحقق بذلك الانسجام والتماسك بين عنوانها وبين مقصدها، وهو إخلاص التوحيد لله تعالى، وكان في اختيار هذا العنوان تنبيه المتلقي إلى هذا المقصد المهم.

وقد لا يدل عنوان السورة على موضوعها الكلي إذا تعددت موضوعاتها في إطار رؤية كلية للسورة توحدها، فيعمل المتلقي على استنباط الموضوع من جملة الموضوعات الجزئية التي ضمتها السورة، ومن ثم يشكّل العنوان جزءًا من الموضوع الكلي للسورة.

وهكذا يمكننا القول: إن الارتباط بين السور وأسمائها يحقق قدرًا من الانسجام والتماسك بين أسماء هذه السور وأبنيتها الكلية بالآتي:

1- تعالق المرجعية السابقة؛ إذ يشكّل العنوان مرجعية بعدية إلى محتوى السورة، أي يشير إلى ما بعده.

2- تعالق الإجمال والتفصيل.

3- التناسب بين العنوان والمضمون.

ويعدُّ الفقي الحدث الذي يُذكر فيه العنوان نمطا من أنماط التكرار الذي هو أحد الآليات المحققة للتماسك النصي، فضلا عن أنه يساهم في تحليل النص شكلا ودلالة[42].

المبحث الثالث: البنية الكلية وعلاقتها بالآية الأولى (الجملة النواة):

يعوّل المحلّلون النصيون على الجملة الأولى كثيرًا في فك شفرة النص؛ ذلك أنها تُعد المؤشر الأول – غالبًا – الذي يدلنا على موضوع الخطاب أو المقصد الكلي للنص، فالمرسل يوجّه في الغالب كل تركيزه في هذه الجملة، فما بعدها يُعد في الأغلب تفسيرًا لها، فهي تشكّل المركز الذي يدور عليه النص فيما بعد بجمله وفقراته؛ إذ تتعالق بقية أجزاء النص بالجملة النواة بوسيلة ما[43].

وقد أدرك علماؤنا قديمًا أهمية الجملة الأولى في النص؛ يقول السيوطي: "وسئل الشيخ.. عن الحكمة في افتتاح سورة الإسراء بالتسبيح، والكهف بالتحميد.. وأجاب ابن الزملكاني بأن سورة (سبحان) لما اشتملت على الإسراء الذي كذب المشركون به النبي ﷺ، وتكذيبه تكذيب لله تعالى، أتى بـ(سبحان) لتنزيه الله عما نسب إليه ولنبيه من الكذب. وسورة الكهف لما أنزلت بعد سؤال المشركين عن قصة أصحاب الكهف وتأخير الوحي نزلت مبينة أن الله تعالى لم يقطع نعمته عن نبيه ولا عن المؤمنين؛ بل أتم عليهم النعمة بإنزال الكتاب، فناسب افتتاحها بالحمد على هذه النعمة..."[44]. ومن الشواهد على هذه القضية – التي نحن في صدد معالجتها– سورة (الفاتحة)، وتسمى سورة الحمد؛ لأن الله –سبحانه وتعالى– افتتحها بحمده، فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:2]؛فموضوع الحمد يمثّل بنيتها الكلية؛ فمعانيها تتركّز في بيان محامد الرب تعالى التي يدور عليها القرآن من أوله إلى آخره في آياته وسوره، وهي خمسة محامد: حمده على ربوبيته،

وعلى ألوهيته، وعلى أسمائه وصفاته، وعلى خلْقِه وإبداعه الكائنات، وعلى شرعه وكتابه وما أنزل؛ فـ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ و ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ثناء على ربوبيته؛ وعلى أسمائه وصفاته، و﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ فيه الصفات ...، وفيه أيضًا الخلق والأمر، و﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ، فيه الألوهية، و﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فيه الربوبية، وفيه أيضا القدر؛ لأنك تستعين بمن يعين على ما يحدث في ملكوته و﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ من النعم الدينية، وهي الهداية إلى الصراط المستقيم، فهو المحمود على كل نوع من أنواع الهداية للصراط المستقيم، ثم وصف، فقال تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، وهذا من أنواع النعم التي يحمد عليها، وهي راجعة إلى أحد أركان الحمد؛ يقول السيوطي: "قال الطيبي: وجميع القرآن تفصيل لما أجملته الفاتحة، فإنها بنيت على إجمال ما يحويه القرآن مفصلًا، فإنها واقعة في مطلع التنزيل، والبلاغة فيه: أن يتضمن ما سيق الكلام لأجله..."[45].

وقال الله – جلَّ حلاله– في افتتاح سورة (الحج): ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾[الحج:1]؛ فافتتحت السورة بالأمر بالتقوى التي هي المنجية من هول ذلك اليوم؛ لأن في السورة ذكر التوحيد، وإثبات البعث، وإنكار الشرك، والقيامة وأهوالها[46].

وسورة (فاطر) منطلق خطابها قول الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[فاطر:1]. فهذه الآية تصدرت التصريح بالحمد مناسبة لمحور السورة الذي ينصب حول توحيد الله تعالى، "فمقصودها إثبات القدرة الكاملة لله تعالى اللازم منها تمام القدرة على البعث الذي عنه يكون أتم الإبقاءين الإبقاء بالفعل دائماً أبداً بلا انقطاع ولا زوال ولا اندفاع في دار المقامة التي أذهب عنها الحزن والنصب واللغوب، ودار الشقاوة الجامعة لجميع الأنكاد والهموم"[47].

وفي سورة (الرحمن) جاءت الجملة الأولى لتمثّل النواة التي تتناسل منها مفاهيم عرض آثار رحمة الله على خلقه جنهم وإنسهم، قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ﴾[الرحمن:1]، أي: هو الرحمن[48]، ثم شرعت الآيات في بناء المنظومة الدالة على آلائه على عباده بدءًا بتعليم القرآن في الحياة الدنيا كتاب المسطور، ومرورًا بتسخير الكون كتاب الله المنظور وانتهاء بمكافأته للمؤمنين المحسنين، وهي جنتان، ومن دونهما جنتان، فـ السورة كلها في ذكر نعم الرحمن الدينية والدنيوية[49].

وثمة نماذج كثيرة في النص العقدي لسور مثّلت الجملة الأولى فيها موضوع حديثها، وقد تتفق الجملة الأولى في بعض

السور مع عنوانها في التعريف بموضوع السورة، ومن ذلك على سبيل المثال هذه السور: المؤمنون، القيامة، المرسلات، الزلزلة...إلخ.

وهكذا نجد أن الجملة الأولى تعد في الغالب خيطًا دلاليًا يربط النص بالموضوع العام، ويتفق المحدثون مع القدماء في ذلك؛ فيذكر أحد الباحثين المعاصرين أن "الجملة الأولى في أي نص تمثّل معلمًا عليه يقوم اللاحق منها ويعود"(50).

المبحث الرابع: البنية الكلية وعلاقتها بخاتمة النص:

إذا بحثنا في الدراسات النصية التراثية التي قدمها لنا بعض العلماء في التفسير أو علوم القرآن سنجد أنهم انتبهوا لقضية التناسب، أي: الترابط بين بداية السور ونهايتها من جانب، وبين خواتيم السور ومفتتح السور اللاحقة من جانب آخر. لكنهم لم يوجهوا عنايتهم البحثية لتتبع أنسجة الترابط بين الموضوع العام أو القضية التي تناقشها السورة وخاتمتها.

وكذلك حتى الدراسات النصية المعاصرة نجدها لم تعول على الجملة الخاتمة في اكتشاف موضوع النص والدلالة عليه كما هو الشأن مع الجملة المفتاحية للنص.

على أننا لو تتبعنا سور القرآن التي تشكل نسيج البنية العقدية لوجدنا أن كثيرًا من هذه السور تتعالق جملها الختامية بموضوع النص أو المقصد الكلي للنص المتمثّل بالتوحيد، سواء الألوهية، أو الربوبية، أو الأسماء والصفات.

فعلى سبيل المثال ختمت سورة (إبراهيم) حديثها عن الألوهية في قوله تعالى: ﴿... وَلِيَعْلَمُواْ أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾[إبراهيم:52]، وسورة (الكهف) انتهى مطافها في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[الكهف:110]، وسورة (الحجر) توقف حديثها في قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[الحجر:99]، وسورة (القصص) ختمت حديثها عند قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَدْعُ مَعَ اللّهِ إِلَهًا آخَرَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[القصص:88]، وسورة (الإسراء) استقر بها الحديث في بيان توحيد الألوهية والربوبية والأسماء والصفات معًا، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾[الإسراء:111]، وكذلك ختمت سورة (المؤمنون) بالتوحيد بأنواعه في قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ. وَمَن يَدْعُ مَعَ اللّهِ إِلَهًا آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ. وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ

﴿وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾[المؤمنون:16-118]. ومن السور العقدية التي ختمت حديثها عن الربوبية والألوهية سورة (هود)، في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[هود:123]. ومن السور العقدية التي ختمت حديثها عن الأسماء والصفات سورة (الأنبياء) في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾[الأنبياء:112]، وكذلك سورة (الجاثية) انتهى سياقها بقوله: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. وَلَهُ الْكِبْرِيَاء فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[الجاثية:36-37]، وكذا سورة (الرحمن) ختمت السياق بقوله تعالى:

﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[الرحمن:78]، والأمر نفسه في سورة (الحشر)، إذ اختتم مطافها بقوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[الحشر: 24].

وهكذا بعد هذا الرصد والتتبع نستنتج أن الجملة الخاتمة أو الآية الختامية لا تقل أثرًا عن الجملة المفتاحية في الدلالة والتأشير على البؤرة المركزية للنص، فجملة الاختتام كأنها تذكر القارئ بأهم نقطة دار عليها الحدث النصي حتى تعلق في ذاكرته وتستقر في خارطته الثقافية. وهذا التذكير أو الاختزال الذي تُعبر عنه هذه الجمل الخاتمة يُعد في الأساس ارتباطًا بين هذه الجمل وبين الفكرة الأم. وهكذا يتجلى لنا بوضوح من ذلك حالة الانسجام بين البنية الكلية للنص العقدي ممثَّلة بالتوحيد وبين خاتمة النص أو نهايات السور العقدية.

الخاتمة والنتائج:

حاول هذا البحث أن ينطلق من المنهج اللساني النصي، فيحلل على ضوئه موضوع البنية الكلية وأثرها في تحقيق الانسجام في النص العقدي في إطار آيات أصول الإيمان الستة. وقد خرج البحث بنتائج أهمها:

- تطلق البنية الكلية على حاصل مضمون البنى الكبرى المكونة للنص، وهذه البنية تشكَّل البؤرة المركزية والنقطة الدلالية الأولى والمكثفة التي تتحكم بمسار الأحداث وتنظيم مصفوفة المواقف الدلالية واختزالها في عالم النص.
- تدخل البنية الكلية ضمن آلية الانسجام التي تعمل على تحقيق نصية النص وارتباطه في إطار وحدته الدلالية، وهذه العملية التحليلية التي من مخرجاتها فرز البنية الكلية لها قيمة وظيفية فاعلة، ذلك أنها تؤطر أهم أحداث النص وأفكاره في موضوع النص، أو الغرض من انتاجيته، وتربط بقية الأحداث والمفاهيم به؛ فيسهم ذلك في تحقيق انسجام النص برمته، ويعين المتلقي على فهم النص واستيعاب مفهوميته.

– مثَّلت البنية الكلية رأس هرم النص العقدي، أو الوحدة الموضوعية التي جمعت أحداثه تحت بؤرة دلالية واحدة، هي الدعوة الى توحيد الله تعالى، فكل أحداث النص تلتقي خيوطه الفكرية في إطار هذه النقطة المحورية الكبرى من قريب أو بعيد؛ ما يؤكد أن النص العقدي نسيج واحد منسجم.

– عملت عناوين بعض السور، والجمل أو الآيات المفتاحية، والآيات الختامية على تسهيل عملية الكشف عن البنية الكلية للنص العقدي، إذ كانت تشكّل في بعض الأحيان المركز الذي يدور عليه النص فيما بعد بجمله وفقراته.

الهوامش:

[1]/ هاينه من، وفيهفيجر: مدخل إلى علم اللغة النصي، تر: فالح بن شبيب العجمي، (جامعة الملك سعود، الرياض، 1999م)، ص37 – 38.

[2]/ أخذ هذا المصطلح – نتيجة الترجمة – تسميات عدة، منها: (الانسجام)، (الحبك)، (الالتحام)، (التماسك).

[3]/ ابن منظور: جمال الدين الإفريقي: لسان العرب، (دار صادر، بيروت، ط8، 2014م)، مادة (س. ج. م)، ج7 – 131/8. وينظر: إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، (دار الحديث للطبع والنشر، بيروت، ط2، 1972م)، ص 418.

[4]/ ينظر: عبد المجيد، جميل: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1998م)، ص141.

[5]/ دي بوجراند، روبرت: النص والخطاب والإجراء، تر: تمام حسان، (عالم الكتب، القاهرة، ط2، 2007م)، ص201.

[6]/ ينظر: الجوادي، مجدي: الانسجام الدلالي والانسجام التداولي في الخطاب، الخطبة البتراء نموذجًا، (الدار التونسية للكتاب، تونس، ط1، 2019م)، ص21.

[7]/ ينظر: براون، يول: تحليل الخطاب، تر: محمد لطفي الزليطني، ومنير التريكي (جامعة الملك سعود، الرياض 1997م). ص234–235.

[8]/ ينظر: ختيم، عزوز: الانسجام في النص القرآني– دراسة في الأدوات والمستويات، (رسالة دكتوراه، جامعة باتنة، الجزائر، 2017–2018م)، ص19.

[9]/ هاينه من: مدخل إلى علم اللغة النصي، ص43.

[10]/ تاج، فوزية مير: التحليل النصي، رسالة دكتوراه، (الجامعة الإسلامية، إسلام آباد، باكستان،2013م)، ص260.

[11]/ برينكر، كلاوس: التحليل اللغوي للنص، تح: سعيد بحيري، (مؤسسة المختار، ط1، 2005م)، ص73.

[12]/ ينظر: شبل، عزة: علم لغة النص النظرية والتطبيق، (مكتبة الآداب، القاهرة، ط2، 2009م)، ص191.

[13]/ فضل، صلاح: بلاغة الخطاب وعلم النص، (عالم المعرفة، الكويت،1990م)، ص235، 236.

[14]/ ينظر: خطابي، محمد: لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، (المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2006م)، ص180.

[15]/ ينظر: تاج، فوزية مير: التحليل النصي، ص328.

[16]/ ينظر: خطابي، محمد: لسانيات النص، ص276، 277.

[17]/ ينظر: محمد علي الصابوني: آمنت بالله، البراهين والأدلة العقلية على صفاء عقيدة التوحيد، (المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2011م)، ص88.

[18]/ الغزالي، محمد: المحاور الخمسة للقرآن الكريم، (دار الشروق، القاهرة)، ص19.

[19]/ ينظر: دراز، محمد عبد الله: النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، (دار القلم، الكويت)، ص190.

[20]/ العزي، عبد المنعم صالح: تهذيب مدارج السالكين لابن قيم الجوزية، (مؤسسة الرسالة، بيروت، ط5، 1996م)، 1053/2.

[21]/ رواه البخاري (1395)، ومسلم (19).

[22]/ رواه البخاري (1399)، ومسلم (21).

[23]/ الشاطبي، أبو إسحاق: الموافقات في أصول الشريعة، تح: محمد عبد الله دراز، (دار الحديث، القاهرة، ط1، 2006م)، 277/3.

[24]/ قطب، سيد: في ظلال القرآن، (دار الشروق، القاهرة، ط5، 2005م)، 1243/3.

[25]/ ينظر، قطب، سيد: في ظلال القرآن، 1018/2.

[26]/ قطب، سيد: في ظلال القرآن، 1753/3.

[27]/ ينظر: في ظلال القرآن 2257/4، وينظر: ابن عاشور، محمد الطاهر: التحرير والتنوير، (دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 1997م)، 246/15.

[28]/ الشاطبي: الموافقات، 289/3.

[29]/ الباز، أنور: التفسير التربوي للقرآن الكريم، (دار النشر للجامعات، القاهرة، مصر، ط1، 2007م)، 147/3.

[30]/ فضل، صلاح: قراءة الصورة وصور القراءة، (دار الشروق، القاهرة، مصر، ط1، 1998م)، ص66.

[31]/ دايك، فان: علم النص– مدخل متداخل الاختصاصات، ت: سعيد بحيري، (دار القاهرة، القاهرة ط2، 2005م)، ص88.

[32]/ ينظر: هاينه من: مدخل إلى علم اللغة النصي، ص53.

[33]/ ينظر: الفقي، صبحي إبراهيم: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، (دار النابغة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2015م)، ص428.

[34]/ ينظر: مفتاح، محمد: دينامية النص– تنظير وإنجاز، (المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1987م)، ص72.

[35]/ الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر: البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، (دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط1، 1957م)،270/1.

[36]/ البقاعي، برهان الدين: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تح: عبد الرزاق غالب المهدي (دار الكتب العلمية، بيروت، 1995م)، 12/1.

[37]/ المصدر السابق، 199/6.

[38]/ البقاعي: نظم الدرر، 4/2.

[39]/ شحاتة، عبد الله محمود: أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1976م)، ص23.

[40]/ ينظر: الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، (دار إحياء التراث العربي، بيروت)، 503/15. وينظر: البقاعي: نظم الدرر، 575/8. وينظر: الرازي: فخر الدين بن عمر: التفسير الكبير– مفاتيح الغيب، (دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000م)، 161/32.

[41]/ ينظر: المصدر السابق، 503/15.

[42]/ ينظر: الفقي: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ص429.

[43]/ ينظر: واورزنياك، زتسيسلاف: مدخل إلى علم النص، (مشكلات بناء النص)، ت: سعيد بحيري، (مؤسسة المختار، ط1، 2003م)، ص72.

[44]/ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: معترك الأقران في إعجاز القرآن، (دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1988م)، 63/1.

[45]/ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: تناسق الدرر في تناسب السور، تح: عبد القادر أحمد عطا، (دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1986م)، ص62.

[46]/ ينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير، 183/17.

[47]/ البقاعي: نظم الدرر، 199/6.

[48]/ الرازي: مفاتيح الغيب، 75/29.

[49]/ ينظر: الزمخشري، محمود بن عمر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ضبط وتوثيق: أبي عبد الله الداني، (دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 2008م)، 333/4، وينظر: البقاعي: نظم الدرر، 371/7.

[50]/ الزناد، الأزهر: نسيج النص، (المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1993م)، ص67.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية حفص بن عاصم.
- إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، (دار الحديث للطبع والنشر، بيروت، ط2، 1972م).
- الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، (دار إحياء التراث العربي، بيروت).
- ابن عاشور، محمد الطاهر: التحرير والتنوير، (دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 1997م).
- ابن قيم الجوزية: تهذيب مدارج السالكين، هذبه: عبد المنعم صالح، (مؤسسة الرسالة، بيروت، ط5، 1996م).
- ابن منظور: جمال الدين الإفريقي: لسان العرب، (دار صادر، بيروت، ط8، 2014م).
- الباز، أنور: التفسير التربوي للقرآن الكريم، (دار النشر للجامعات، القاهرة، مصر، ط1، 2007م).
- براون، يول: تحليل الخطاب، تر: محمد لطفي الزليطني، ومنير التريكي (جامعة الملك سعود، الرياض، 1997م).
- برينكر، كلاوس: التحليل اللغوي للنص، تح: سعيد بحيري، (مؤسسة المختار، ط1، 2005م).
- البقاعي، برهان الدين: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تح: عبد الرزاق غالب المهدي (دار الكتب العلمية، بيروت، 1995م).
- تاج، فوزية مير: التحليل النصي، رسالة دكتوراه، (الجامعة الإسلامية، إسلام آباد، باكستان،2013م).
- الجوادي، مجدي: الانسجام الدلالي والانسجام التداولي في الخطاب، الخطبة البتراء نموذجًا، (الدار التونسية للكتاب، تونس، ط1، 2019م).
- ختيم، عزوز: الانسجام في النص القرآني– دراسة في الأدوات والمستويات، (رسالة دكتوراه، جامعة باتنة، الجزائر، 2017–2018م).
- خطابي، محمد: لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، (المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2006م).
- دايك، فان: علم النص– مدخل متداخل الاختصاصات، ت: سعيد بحيري، (دار القاهرة، القاهرة ط2، 2005م).
- دراز، محمد عبد الله: النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، (دار القلم، الكويت).
- دي بوجراند، روبرت: النص والخطاب والإجراء، تر: تمام حسان، (عالم الكتب، القاهرة، ط2، 2007م).
- الرازي: فخر الدين بن عمر: التفسير الكبير– مفاتيح الغيب، (دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000م).
- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر: البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، (دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط1، 1957م).
- الزمخشري، محمود بن عمر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ضبط وتوثيق: أبي عبد الله الداني، (دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 2008م).
- الزناد، الأزهر: نسيج النص، (المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1993م).

– السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: تناسق الدرر في تناسب السور، تح: عبد القادر أحمد عطا، (دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1986م).

– السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: معترك الأقران في إعجاز القرآن، (دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1988م).

– الشاطبي، أبو إسحاق: الموافقات في أصول الشريعة، تح: محمد عبد الله دراز، (دار الحديث، القاهرة، ط1، 2006م).

– شبل، عزة: علم لغة النص النظرية والتطبيق، (مكتبة الآداب، القاهرة، ط2، 2009م).

– شحاتة، عبد الله محمود: أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1976م).

– العزي، عبد المنعم صالح العلي: أصول العقيدة الإسلامية التي قررها الإمام الطحاوي، (دار البشير للثقافة والفنون، طنطا، ط1، 1999م).

– الغزالي، محمد: المحاور الخمسة للقرآن الكريم، (دار الشروق، القاهرة).

– فضل، صلاح: بلاغة الخطاب وعلم النص، (عالم المعرفة، الكويت، 1990م).

– فضل، صلاح: قراءة الصورة وصور القراءة، (دار الشروق، القاهرة، مصر، ط1، 1998م).

– الفقي، صبحي إبراهيم: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، (دار النابغة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2015م).

– قطب، سيد: في ظلال القرآن، (دار الشروق، القاهرة، ط5، 2005م).

– محمد علي الصابوني: آمنت بالله، البراهين والأدلة العقلية على صفاء عقيدة التوحيد، (المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2011م).

– مفتاح، محمد: دينامية النص– تنظير وإنجاز، (المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1987م).

– هاينه من، وفيهفيجر: مدخل إلى علم اللغة النصي، تر: فالج بن شبيب العجمي، (جامعة الملك سعود، الرياض، 1999م).

– واورزنياك، زتسيسلاف: مدخل إلى علم النص، (مشكلات بناء النص)، ت: سعيد بحيري، (مؤسسة المختار، ط1، 2003م).